

إشكالية التداخل الأجناسي بين الأدب الرحلي والأدب الروائي

The problematic of gender overlap between travel literature and novelistic literature.

✍ قاده محمد²

2kadamed67@gmail.com

✍ بحري نصيرة¹

1 sirra2626@gmail.com

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم / الجزائر

تاريخ النشر: 2021/01/15

تاريخ القبول: 2020/10/08

تاريخ الاستلام: 2020/06/30

ABSTRACT:

ملخص البحث

The novel, in the context of the experiment, knew many mutations which made extrovert to many literary genders and overlap with them. The travel is one of the most harmonious and overlapping literary genders with them because of their flexibility and openness to each other and Najib Mahfouz's "Ibn Fatouma's travel" is a true example of gender overlapping. we will therefore seek to explain the nature of the relationship between the travel and the novel, revealing the distinctions between them in an effort to illustrate the manifestations of the travel literature itself in the above mentioned travel.

Keywords: Travel-novel-hybridization-textual overlap-literature.

عرفت الرواية في إطار عملية التجريب تحولات كثيرة بحثا عن نموذج جديد تنظم فيه مما جعلها تنفتح على كثير من الأجناس الأدبية وتتداخل معها، وتعتبر الرحلة واحدة من بين أكثر الأجناس الأدبية قابلية للانسجام والتداخل معها نظرا لمرونة كل منهما وانفتاحه على الآخر، وتعد رواية "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ نموذجا حقا للتداخل الأجناسي ولهذا سنسعى في هذا البحث إلى بيان طبيعة العلاقة بين الرحلة والرواية كاشفين عن التمايزات الموجودة بينهما سعيا لبيان تجليات الأدب الرحلي ذاته في الرواية السالفة.

الكلمات المفتاحية : الرحلة - الرواية - التهجين - التداخل النصي - الأدب.

¹ المؤلف المرسل : بحري نصيرة

1. مقدمة:

لا مندوحة لنا من الاعتراف بأن فن الرواية قد خضع لكثير من التحولات في العقود الأخيرة بفعل التجريب ، وقد تجلّى ذلك في استخدامها لجملة من التقنيات لعل أهمها تداخل أو تضايق الأجناس الأدبية ، وهذا التزوع إنّما يهدف إلى بعث نموذج جديد منفتح على بقية الأجناس الأخرى فيه من الهجنة والتداخل ما يجعل الناقد أمام معضلة حقّة ألا وهي مشكلة التصنيف. ولعلّ أدب الرحلات يعدّ واحداً من بين أكثر الأنواع الأدبية ارتباطاً بالرواية ، فما هي علاقته بالأدب الروائي ؟ وما هي النماذج التي يتبدّى فيها التداخل الأجناسي بينهما ؟ تلكم هي الإشكاليات التي تسعى هذه الدراسة للإجابة عنها، وتحقيقاً لهذا المسعى ارتأينا التركيز على رواية "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ كنموذج للتداخل الأجناسي بين الفئتين السالفتين فجاءت الدراسة على النحو التالي:

2. أدب الرحلة والرواية:

ما دامت الرحلة والرواية تنتسبان إلى حقل السرد فلاشك أنّهما يتقاطعان في عدّة زوايا وأنّ يستعير كلّ منهما خصائص الآخر، وإن كنّا نعتقد بأنّهما فنّين متواشجين ما يربط بينهما أكثر ممّا يفرّق بينهما، ولاشك أنّ هذا ما دفع بالباحث الغربي بيرنار فاليط (Bernard valette) إلى القول: "لعلّ إغراء النسابة أمر لا مفرّ منه، لذلك يبدو أنّ البحث عن صلات القُربى التي تجمع في خانة نوعيّة واحدة هي "عمل سردي" بين أشكال متواشجة مثل الخرافة والأقصوصة والمحكي.. الخ هو أفضل وأنسب من تحمّل المقارنة...، ألّم تكن بعض النصوص التي نعتبرها اليوم نموذجاً للكتابة الروائية تحمل في أصولها عناوين أخرى؟ فعلى أيّ أساس تقوم هذه المشابهة" ⁽¹⁾ ولعلّ هذا ما جعل البعض يقف حائراً أمام بعض النصوص فيصفها تارة بأنّها رواية، وطوراً بأنّها رحلة، ولعلّ التزاوج الحاصل بين هذين الجنسيتين هو الذي قاد الباحث بلقاسم مارس إلى وسم أحد كتبه بـ "فنّ الرحلة في الرواية العربية" ولو تأمّل الباحث هذا العنوان، لاستشفّ بأنّ الرحلة مضمّنة في الرواية، هذا فضلاً عن ورود روايات تحمل اسم "الرحلة" في عتباتها مثل "الرحلة الأصعب" لفدوى طوقان، "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ، "الرحلة الأخيرة" لهشام شرابي، وما إلى ذلك من النصوص التي تتأرجح -إن صحّ التعبير- بين فنّي الرحلة والرواية، ولنا أن نتأمّل تعقيب الباحث عبد الرحيم مؤذن على الرواية الأخيرة بقوله: "ولمّا كان المكوّن الفاعل في جسد الحكاية وجسد التّاريخ أيضاً هو المكوّن الرحلي، فإنّ السرد في هذا النصّ يخضع للصّيغة الروائية قبل الصّيغة الرحلية" ⁽²⁾ لندرك درجة الالتباس بين الفئتين، وهو الأمر الذي يجعل القارئ يرتاب ويشكّك في حقيقة ما يقرأ، هل هو أمام رواية أم أمام رحلة ؟ هذا هو السؤال الإشكالي الذي ما ينفكّ يراود المتلقي، بل إنّهُ يؤرّقه، ويعيد طرح نفسه عليه كلّما اصطدم بنوع من أنواع هذه النصوص التي تنبئ عن إشكالية في تجنيسها من عتباتها.

وقبل أن نستعرض التمايزات الموجودة بين الجنسين الأدبيين السالفين، ارتأينا أنه من الأفيد أن نعود إلى التعريف بالرواية، ومن ثم الحديث عن عناصرها وشروطها، فالحديث عن علاقتها بالرحلة . وإذا ما أراد الباحث استظهار مفاهيم الرواية في الكتب فإنه لا مناص من أن يصطدم بصعوبة الأمر، وذلك نظرا لعدم الاتفاق الحاصل بين الباحثين، ولطبيعة المتن الروائي في حد ذاته ما جعلهم يقرّون بذلك صراحة كما فعل الباحث عبد الملك مرتاض في مؤلفه الموسوم بـ "في نظرية الرواية" حيث يقول: "والحق أننا وبدون خجل ولا تردد نبادر إلى الإجابة عن هذا السؤال بعدم القدرة على الإجابة"⁽³⁾.

والحق أنّ صعوبة إيجاد مفهوم واضح للرواية مرده إلى ارتباطها بالحياة ومتغيّراتها وتشعب موضوعاتها، بيد أنّ ذلك لا ينفي وجود بعض المحاولات التي تتصدى للتعريف بهذا الفن، فهذا مثلا الباحث أحمد راكز يقول: "الرواية جنس سردي نثري فني، حكاية خيالية تستمدّ خيالها من طبيعة تاريخية عميقة، وتستمدّ فنيّتها من كونها: شكلاً، خطاباً يُقصد منه التأثير على متلقّيه من خلال استعماله لأساليب جماليّة، إنّها مؤلّف تخيليّ نثري له طول معيّن، ويقدم شخصيات معطاة كشخصيات واقعية تعيش في وسط، ويعمل على تعريفها بسيكولوجيتها، بمصيرها ومغامراتها"⁽⁴⁾. ونستشف من خلال هذا التعريف أنّ صاحبه قد فصل الحديث عن الرواية فجاء تعبيره شاملا لسماتها وخصائصها الفنيّة وبعض عناصرها ، هذه العناصر التي يرى الباحث أمين محمود العالم بأنّها تتحدّد بما يلي:

- سمات الشخصية والعوامل التي توجّهها.

- الطابع السجيلي كوصف الأشياء والعادات والتقاليد.

- الطابع التحليلي .

- الأسلوب.

- التصميم الذي تخضع له الرواية.⁽⁵⁾

وإن كنّا الآن قد تحدّثنا عن الرواية هاهنا فنحن لا نقصد بذلك حشو بحثنا بما هو خارج عنه، ولكننا ارتأينا أنه ثمة علاقة وثيقة بين ما ذكر وبين الرحلة، وقد اقتصرنا فقط على ذكر اليسير عن الرواية حتى لا نثم بالإطناب.

ويبدو أنّ درجة الالتقاء بين الفنّين السالفين، ووجود قواسم مشتركة بينهما لا ينفي وجود سمات خاصّة بكلّ منهما، وهو الأمر الذي يوضّحه الكاتب حنا عبود في قوله: "إنّ الماء يتفاعل مع الحديد، ومع ذلك له خصوصيّة التي ينفرد بها، بل إنّ الهيدروجين والأكسجين في الماء ذاته ينفرد كلّ واحد بخصوصيته التي لا يشاركه فيها الآخر، على الرّغم من اتّحادهما"⁽⁶⁾ ونستشف ممّا ذكر أنّ

ثمة خصوصية لكل نوع فللرواية خصوصيتها وللرحلة كذلك، ولا يعني ذلك أنّ بين الخصوصيات حدوداً مسلّحة، فكل شكل مهما بلغت درجة خصوصيته مفتوح دائماً على الأشكال الأخرى، ومتفاعل معها ومستجيب لها، وهو ما عبّر عنه الباحث السّالف الذّكر في قوله: "إنّ الشّكل الروائي شكل قابل للتفاعل أكثر مع بقية الأشكال، والرواية مشروع منفتح دائماً ولكن هذا لا يقتضي التسليم بأنّها أيضاً نتيجة لمفاعلات سابقة، ومنها لعبة الشّكل في الأنواع الأدبية الأخرى"⁽⁷⁾ ويقترب من هذا الرّأي ما ذهب إليه الباحث عادل فريجات في قوله: "إنّ هذا الجنس تخلّق حين تخلّق جنساً مرحاً منداح الأبعاد، قادراً على الهضم والتمثّل والإفادة من فنون أخرى، وقد وصفه نجيب محفوظ بأنّه الفنّ الذي يوفّق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقيقة وحنينه الدائم إلى الخيال، وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال اجتهدت الرواية في أن تحتقب صفات الأجناس الأدبية الأخرى، وأن تفيد من فنون مختلفة"⁽⁸⁾. وما دامت الرواية تحتقب صفات الأجناس الأخرى فلا شكّ أنّها قد أفادت من الرّحلات أيّما إفادة، وفي هذا السّياق يقودنا الباحث عبد الله المدني إلى موازنة دقيقة بين أدب الرحلة والرواية جاء فيها أنّ: "أدب الرّحلات لون من ألوان الأدب ذو خصوصية وتميّز، ولئن اشترك أدب الرّحلات مع فنّ الرواية من حيث اللّجوء إلى السّرد والوصف، فإنّه يختلف في عدم اللّجوء إلى الخيال، وفي حين أنّ الرواية لا تقدّم المعلومة إلّا نادراً، فإنّ أدب الرّحلات يقدّم معلومات هائلة، في ثوب أدبيّ متفاوت بحسب الكاتب وقدراته، ومن إحدى مميّزات أدب الرّحلات أنّه يمنح الكاتب حرّية قلّما تتوافر في الأشكال الأخرى من الفنون الأدبية، وهي حرّية اختيار المشاهد والحوادث، وحرّية إسباغ ثقافته وقدرته الإبداعية الثّرية أو الشّعريّة على ما يكتب، أو ما يريد أن يكتب"⁽⁹⁾. وسنحاول فيما يلي رصد التّمايزات الموجودة بين الرحلة والرواية انطلاقاً من الاعتبارات التّالية:

1.2 الزّمان والمكان: إنّ الرواية تنهض على أساس سردي، فهو الذي بواسطته ينقلنا الرّاي إلى عالم القصّة، ويأتي الوصف في الرواية الواقعيّة مثلاً، ليتّخذ أبعاداً جماليّة في الأساس ترهنه بما يقدّمه لنا من إضاءات عن الشّخصية أو مكان الحدث. ويمكن قول السّيء نفسه عن الرواية الجديدة، رغم الاختلاف بينهما على هذا الصّعيد. إنّ السّرد في الرواية يؤطّر الوصف ويستوعبه، لذا يغدو البعد الزّماني فيها يحتلّ مكانة أساسية بقياسه بالمكان.

أمّا الرحلة فيمكن الدّهاب الآن إلى أنّها خطاب وصفي لأنّها تضع في الاعتبار الأوّل البعد المكاني في زمن معيّن⁽¹⁰⁾.

2.2 الآن - هنا: يرتبط السّرد بالفعل الذي جرى "أمس" وهذا ما نجده ماثلاً في الرواية ولكنّ الوصف يهتمّ بالمكان الموجود الآن. وبين الأمس والحال مسافة زمانية ومكانية في آن معاً. فأمس زمنيّاً تنقل الهنا إلى هناك، والآن تنقل هناك إلى هنا. ومن هاهنا يبدأ التّعارض بين الزّمان والمكان والوصف والسّرد. إنّ ماضي السّرد (أمس) يدفعنا إلى استعادة الزّمن المنتهي، وإعادة ترتيبه وملء

فجواته وهذه الاستعادة هي استحضار للماضي، أو ما يسمى بـ"الفلاش باك" أو العودة إلى الوراء وهي بلا شك تتم بواسطة "التخييل". أمّا الآن المقدم من خلال الوصف، فإنه وإن تمّ في زمان مضى فإنه يجعل الصورة ماثلة أمام أعيننا "التجسيد".

فاعتماد السرد في الرواية على التخييل واعتماد الرحلة على التجسيد يجعلنا ندرك أنّ ثمة تمايزا بين الجنسين، وبين التخييل الذي يولده السرد والتجسيد الذي يقدمه الوصف مسافة ترابط الزمان والمكان من جهة تعارضهما بصدد هنا وهناك.

وتجدر الإشارة إلى أنّ السرد في الرواية يجعلنا أمام أحداث تجري قبل الآن، الشيء الذي يدفع المتلقي إلى ملاحقة تبدل الحدث وجريانه في الزمان حتّى النهاية، ما قبل الآن، أمّا في حالة الرحلة فإنّ الوصف وبحكم طبيعته الحركية، وإن كانت ذات عمق زمني، تدفعنا دائما إلى "معينة" المكان ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي يقف عندها الرحالة واصفاً.

وبصدد كل مكان تتشكل لدينا صورة مجسدة عن هذا المكان أو ذاك بشكل يجعل كلّ مكان يختلف عن غيره.

إنّ الفرق بين التخييل والتجسيد، فرق بين السرد والوصف، بين التحوّل والثبات، وهو الفرق نفسه الذي يمكن أن نجده بصورة أخرى بين السّمي والبصري، أو بين الخبر والعيان، وليس الخبر والعيان سوى التمثيل الأجلّى للبعد الزماني الذي يتحقّق من خلال السرد، والمكاني الذي يتجسّد من خلال الوصف، ولو أردنا الذهاب بعيدا في تسجيل هذا التّمايز، لآخذ الصورة التّالية:

الوصف نض السرد

المكان نض الزمان

الآن نض أمس

هنا نض هناك

التجسيد نض التخييل

(نض: نقيض)⁽¹¹⁾

ولو أخذنا رحلة ابن جبير وابن بطوطة زمن دخولهما بغداد وتقديهما إلينا من خلال الوصف فقط، لوجدناها قابلة للتجسيد.

فهي حسب الرحلتين رغم اختلافهما الزماني جانبان: "شرقي وغربي ودجلة بينهما". ويسترسل في الوصف ليتحدّث عن المساجد والمحلات، والقصور والحمامات والطرق، ورغم كون هذه الأوصاف قابلة للتغيير بحسب الطواري والتغيرات، فإنّها تشترك مجتمعة في كونها تجعلنا قادرين على تشكيل صورة ماديّة وملموسة عنها.

3.2 الشخصيات:

لو تأمل الباحث الشخصيات في الرحلة لوجد بأنها شخصيات حقيقية من لحم ودم صادفها الرحالة في طريقه أو تتلمذ على يديها أو تعامل معها، بينما الشخصيات الروائية ليس لها وجود مادي بل هي شخصيات مفترضة متخيلة يتوهمها الروائي، قد تكون مستنطقة من الواقع ومحاكية له، لكنها بعيدة عنه في الآن ذاته إنها تشبه تماما "اللعب الورقية" على حدّ تعبير الباحث بارت (Barthes) كما أن "المؤلف (المادي) لا يمكن أن يختلط مع روايه في شيء من الأشياء" (12).

وفي سياق حديثنا عن الشخصيات أثار انتباهنا ما ذكرته الباحثة جهاد عطا نعيصة في قولها: "شخصيات الرواية عموما ذات بناء واقعي مركب تمتلك مصداقيتها في مشابقتها للبشر الحقيقيين، في أشكالهم وطبائعهم وأقوالهم وأفعالهم" (13) ولنا أن نتأمل كلمة "مشابقتها" لندرك بأنها شخصيات مزيفة محاكية للواقع، شخصيات من إبداع الروائي رسمتها مخيلته لا أثر فيها لما هو محسوس.

وهذا ما يؤكده الباحث بيرنار فاليط (Bernard valette) في قوله: "أما الرواية وعلى غرار أدب الأفكار فيبدو أنها لا تخضع لقواعد كتابية تختص بها، بل إنّ الموضوعات المطروقة هي ما يحدّد كينونتها كجنس، فهي تسرد مغامرات وهمية أو ترسم شخصيات غير حقيقية أو تنسج حكايات متخيلة، ممّا يجعل خطابها في صميم اللاواقع، الذي يقتسم فضاءه الرمزي مع الخرافة والأسطورة والملحمة" (14).

ويتّضح من خلال القول بأنّ الرواية تمثّل إعادة صياغة للواقع وعالم ثانٍ موازٍ له، وقريب منه في الآن ذاته، ولكنه ليس هو ذاته كما هو الأمر مع الرحلة التي تحكي عالما حقيقيا وتصف أحداثا واقعية ودقيقة لا مجال للشكّ فيها، ولا دخل للخيال في ذلك بل إنها الواقع ذاته تلتصق به وتتماهى معه وتحكي عنه وبه ولكنها لا تحاكيه.

ومن هذا المنطلق نرى بأنّ الرحلة في أحداثها وشخصياتها وأزماتها وأماكنها هي أكثر مصداقية وواقعية من الرواية التي هي أقرب إلى التخيل رغم ما يشاع حول واقعية أحداثها وقربها من الحقيقة، بيد أنّها ليست هي الحقيقة عينها، وفي هذا السياق يقول الباحث ميشال بوتور (Michel Butor): "أما الروائي فإنّه يقدّم لنا حوادث شبيهة بالحوادث اليومية، مسبّغا عليها أكثر ما يُستطاع من مظاهر الحقيقة، ممّا قد يصل إلى حدّ الخداع، وما يقصّه علينا الروائي لا يمكن التثبت من صحّته، وما يقوله لنا يجب أن يكفي بالنتيجة لإعطاء كلامه مظهر الحقيقة، ما تصفه لنا الرواية يمثّل جزءا خادعا من الحقيقة" (15).

وفي سياق حديثنا عن علاقة الرحلة بالرواية ارتأينا أن نشير إلى موقف الباحث مارس بلقاسم من القضية حيث رأى "بأنّ الرواية قائمة على الحبكة، في حين أنّ الرحلة غير قائمة على ذلك، فهي

من المؤلفات الوصفية، وينبّه إلى أنّ الرواية تتطلب في آن واحد العنصر الزمني والعنصر السببي، والرحلة كذلك تتوفر على العنصر الزمني أي أنها تتخذ متوالية زمنية إذا تناولت حكايتها مغامرات الرحالة (الشخصية)، وعلى العنصر السببي إذا اقتصرت على عرض الانطباعات وبهذا فإنها تتحوّل إلى قصّة بلا حبكة⁽¹⁶⁾. وهو يرى أنّ هذا التمييز مزدوج في الحقيقة لأنّ هناك تضاداً بين الرواية والرحلة، من جهة وبين المغامرات وسرد الانطباعات من جهة ثانية كما هو موضح فيما يلي:

سرد حر + وصف = رحلة تسلسل + الأحداث = رواية

سرد الانطباعات = حكاية بلا حبكة سرد المغامرات = حكاية قائمة على حبكة

والحق أنّ الباحث كان محقاً في اعتباره للحبكة عنصراً جوهرياً للتمييز بين الرحلة والرواية، فمتى توفرت الحبكة في نظره فنحن نتعامل مع الرواية والحكاية والقصّة، ومتى افتقر النص إليها وتوفّر على السرد الحر غير المقيد والوصف فنحن نتعامل مع الرحلة، بيد أنّه لا يمكن الاعتماد على الحبكة وحدها للتمييز بين الفئتين فهناك عناصر أخرى ذكرت سلفاً، وإن كانت هناك قواسم مشتركة بين أنواع القصص المختلفة يجمعها "نظام ضمني من الوحدات والقواعد يضبطها الإنتاج السردية"⁽¹⁷⁾.

3. تجليات الرحلة في رواية "رحلة ابن فطومة":

غير خاف أنّ رواية رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ تعدّ واحدة من الروايات التي تتجلى فيها سمة التداخل الأجناسي بوضوح حيث مزج فيها صاحبها بين خصائص كلّ من الرحلة والرواية .

والمطلع على هذه الرواية يلفي بأنّ السمات الفنية الرحلية تكاد تهيمن على البناء الجمالي والدلالي لها فهي لا تخلو من حديث عن السفر والارتحال، هذا الأخير الذي توطّره شعريّة الاكتشاف والمعرفة، كيف لا "وفنّ الرحلة ينزع إلى أن يكون متأصلاً في كلّ عمل روائي ذلك أنّ كلّ رواية هي رحلة للذات البشرية بالضرورة، رحلة ظاهرة تعلن عنها الفواعل أو خفية مستترة يكشفها الناقد والقارئ على حدّ سواء"⁽¹⁸⁾ حيث أنّ نجيب محفوظ يحكي في روايته هذه عن رحلة قام بها "قنديل" ابن فطومة الأزهري نحو دار الجبل باعتبارها مكاناً متخيلاً اقتضى المرور من عدة أماكن منها دار المشرق ودار الحيرة ودار الحلبة ودار الأمان ودار الغروب .

والقارئ لروايته هذه يجد بأنّ الرحالة هو نفسه الذات الساردة -تماماً كما هو الحال في الرحلات- وبأنّه يمتلك قدراً كبيراً من المعلومات، ذلك أنّ كثرة تنقله عبر الأمكنة أكسبته معارف متعدّدة، وهو ما أقرّ به صراحة في قوله: "عرفت الرحلات في صحبة المرحوم أبي فطوننا بالمشرق والمغرب"⁽¹⁹⁾. والمطلع على الرحلات بشكل عام يجد بأنّ مثل هذه العبارات نجد لها حضوراً مكثفاً في الأدب الرحلي فما هو الداعي إذا لحضورها في الرواية؟ .

والملاحظ بأن حب المعرفة قد شكّل حافزا أساسيا في هذه الرواية وهو ما يمكن للقارئ أن يستشقه من قوله: "ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة أريد أن أعرف وأن أرجع إلى وطني المريض بالدواء الشافي"⁽²⁰⁾. والجدير بالذكر أن الثراء المعرفي هو سمة من سمات الأدب الرحلي، غير أن هذه المعرفة نابغة عن قصديّة الرحالة ورغبته في اكتشاف المعارف واستعداده لامتلاكها كما هو معبر عنه في قوله: "وأخذت في الاستعداد للرحلة مسترشدا بأستاذي الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب"⁽²¹⁾.

والقارئ لهذه الرواية يلحظ أيضا نزوع ساردها إلى وصف الأماكن والبقاع ونحن نعلم بأن هذه السمة تعتبر سمة جوهرية في أدب الرحلات كما هو الحال في وصفه لإحدى المدن بقوله: "إنها مدينة كإحدى مدن بلادي فيها ميادين وحدائق وشوارع وحواري وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات عامرة بالخلق وفي كلّ موقع شرطي وملاهي الرقص والغناء موفورة وسوقها كبيرة مترامية متعدّدة الحوانيت..."⁽²²⁾. ويبدو أن هذا النوع من الوصف تختص به الرحلات نظرا لعنايتها بالمكان.

والجدير بالذكر أن التداخل الحاصل بين فنّ الرحلة وفنّ الرواية واضح المعالم في هذا النص غير أن حدود كلّ منهما غير مرئية أبدا، ولعلّ مرّد ذلك راجع إلى الانسجام العجيب بينهما وإلى قدرة نجيب محفوظ على المزج بين تقنيتهما وهو ما عبّر عنه أحدهم في قوله: "لقد جعل نجيب محفوظ روايته على شكل رحلة وأفاد من لغة التراث مثلما احتفظ بالتشويق والسحر الذي يطبق عالم المغامرات الخيالية، وهذا الشكل له جذور عريقة في التراث العربي الإسلامي الذي ولد وترعرع على أيدي ابن فضلان وابن بطوطة وابن جبير، وهو من الأشكال المناسبة التي تساعد على تحديث الرواية العربية وتأصيلها في الوقت نفسه، إذ يشتمل على آيتين مهمتين في البناء الروائي الأولى: آية القصّ والثانية آية الوصف فضلا عن حسّ المغامرة والطابع الغرائبي المميّزين لأدب الرحلات"⁽²³⁾.

ومن هاهنا يمكن القول بأن رواية نجيب محفوظ هذه تحفل بكثير من الخصائص الأسلوبية لأدب الرحلات بحيث يُخيّل لقارئها أنها نص رحلي نظرا للتداخل العجيب بين فنّي الرحلة والرواية فيها، الأمر الذي يجعلها عصيّة على التصنيف والانكشاف النقدي.

4. خاتمة:

وعليه فلا يمكن الحديث عن الرواية دون الحديث عن الرحلة فكلّ رواية تحمل في ثناياها رحلات سواء كانت حقيقية أو مجازية كما يمكن القول أيضا بأن الرحلات بحدّ ذاتها تعدّ رواية لصاحبها ولأحداث زمانه.

كما أنّه مهما بلغت بذور التلاقي بين الفئتين السالفين ذروتها في أي نص فإنّه يبقى لكلّ منهما خصائصه الثابتة التي ينماز بها عن الآخر، ومهما أفادت الرواية من الرحلات فإنّ ذلك لا يعني

انسلاخها عن سماتها الأساس، بله أنّ ذلك يضفي عليها مزيداً من الجماليّة. الأمر الذي يجعلنا نتوقع لها تحوّلاً مستمراً سواء على مستوى الشّكل أو على مستوى المضمون ما دامت في تفاعل مستمرّ مع غيرها .

إنّ انفتاح الرواية على بقية الأجناس الأدبية ومنها الرحلات إنّما هو إيدان بميلاد رواية حداثيّة تختلف عن المألوف وتتجاوزه، ما يجعلنا نعيد التّفكير في النّظريات الأدبيّة من جديد لكونها تقف عاجزة أمام نصوص من هذا النوع تتأبّى التصنيف وترفض التحديد .

الهوامش:

- (1) فاليط(بيرنار): النّص الرّوائي تقنيات ومناهج، تر: رشيد بنحدو، منشورات باريس، 1992، ص 76.
- (2) مؤذن(عبد الرحيم): الرّواية الرّحلة، مجلة القدس العربي، أكتوبر، 2013، ص 11.
- (3) مرتاض(عبد الملك): الرواية جنساً أدبياً، مجلة أقلام، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، ع 12، 1986/11، ص 124.
- (4) راكز(أحمد): الرواية بين النّظرية والتّطبيق، دار الحوار للنشر والتّوزيع، ط 1، 1991، ص 13.
- (5) ينظر العالم(محمود أمين): تأملات في عالم نجيب محفوظ، الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنّشر، 1970، ص 68/73.
- (6) عبود(حنا): من تاريخ الرواية -دراسة-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 26.
- (7) المرجع نفسه، ص 29.
- (8) فريجات(عادل): مرايا الرّواية دراسات تطبيقيّة في الفن الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 8.
- (9) المدني(عبد الله): سياحة تاريخية في أدب الرحلات على ضفاف الثّقافة العربيّة، صحيفة الوسط البحرينية، دار الوسط للنشر والتّوزيع، العدد 148، 2003.
- (10) ينظر يقطين (سعيد): السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار الأمان، الرباط، ط 2012، ص 1، ص 171/172.
- (11) المرجع السابق، ص 173.
- (12) ينظر بارت(رولان) مدخل إلى التّحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والتّرجمة والنشر، ط 1، 1993، ص 72/73.
- (13) عطا نعيمة(جهاد): في مشكلات السّرد الروائي، قراءة خلافيّة في عدد من النّصوص والتّجارب الرّوائية العربيّة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 23.
- (14) فاليط (بيرنار): النّص الرّوائي، ص 6.
- (15) بوتور(ميشال): بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 1982، ص 6.
- (16) ينظر بلقاسم(مارس): فنّ الرحلة في الرّواية العربيّة، ص 11.
- (17) المرجع نفسه، ص 12.
- (18) المرجع نفسه، ص 136.
- (19) محفوظ(نجيب): رحلة ابن فطومة، دار الشروق القاهرة، 2007، ص 8.
- (20) المصدر نفسه، ص 19.
- (21) المصدر نفسه، ص 20.
- (22) المصدر نفسه، ص 61.
- (23) القضاة(محمد أحمد): التشكيل الرّوائي عند نجيب محفوظ، ، ص 291.